البعث من خلال القرآن الكريم

الدكتور منصور كافي

جامعة باتنة

مقدمة

قضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية التي جاء بها الإسلام، ويقوم عليها بناء هذه العقيدة بعد قضية وحدانية الألوهية والتي لا يقوم هذا الدين عقيدة وتصورا وخلقا وسلوكا وشريعة ونظاما إلا عليها وبها.

فالحياة في التصور الإسلامي ليست هي هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد، وليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا. بل هي التي يعيشها الإنسان في الآخرة كما يقول سيد قطب في ظلال القرآن. بعد البعث من القبور، ولذا اخترت موضوع البعث بمعنى اليوم الآخر من خلال القرآن الكريم لأبين ما المراد بلفظ البعث في المعاجم اللغوية وما هي اشتقاقاته وما موقف العباد منه وهذا كله وفق منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

أولا: معنى البعث في اللغة

الجذر الثلاثي للبعث هو "بعث". وقد ورد اللفظ بعدة معان منها:

أ-معنى البعث عند ابن فارس: يقول ابن فارس: "الباء والعين والثاء أصل واحد وهو الإثارة. يقال: بعثت الناقة إذا أثرتها"[1].

---

1 – معجم مقاييس اللغة: احمد بن فارس. 266/1، ت / عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991.

مقدمة

قضية البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من قضايا العقيدة الأساسية التي جاء بها الإسلام، ويقوم عليها بناء هده العقيدة بعد قضية وحدانية الألوهية والتي لا يقوم هذا الدين عقيدة وتصورا وخلقا وسلوكا وشريعة ونظاما إلا عليها وبها.

فالحياة في التصور الإسلامي ليست هي هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد، وليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا. بل هي التي يعيشها الإنسان في الآخرة كما يقول سيد قطب في ظلال القرآن. بعد البعث من القبور، ولذا اخترت موضوع البعث بمعنى اليوم الآخر من خلال القرآن الكريم لأبين ما المراد بلفظ البعث في المعاجم اللغوية وما هي اشتقاقاته وما موقف العباد منه وهذا كله وفق منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

أولا: معنى البعث في اللغة

الجذر الثلاثي للبعث هو "بعث". وقد ورد اللفظ بعدة معان منها:

أ–معنى البعث عند ابن فارس: يقول ابن فارس: "الباء والعين والثاء أصل واحد وهو الإثارة. يقال: بعثت الناقة إذا أثرتها"[1].

ب– معنى البعث عند الراغب الاصفهاني: يقول الراغب: "أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثته فانبعث، ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علّق به فبعثت البعير أثرته وسيّرته، وقوله عزّ وجل "والموتى يبعثهم الله" أي يخرجهم

---

1 – معجم مقاييس اللغة: احمد بن فارس. 266/1، ت / عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991.

ويسيّرهم إلى القيامة. فالبعث ضربان: بشري كبعث البعير وبعث الإنسان في حاجة. وإلهي وذلك ضربان:

أحدهما إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن يسر وذلك يختص الباري و لم يقدر عليه أحدا.

والثاني: إحياء الموتى، وقد خص بذلك بعض أوليائه كعيسى عليه السلام وأمثاله، ومنه قوله عزّ وجل: "فهذا يوم البعث" يعني يوم الحشر، وقوله عز وجل: "فبعث الله غرابا يبحث في الأرض" أي قيّضه، "ولقد بعثنا في كل أمة رسولا" نحو: "أرسلنا رسلنا" وقوله تعالى: "ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا" وذلك إثارة بلا توجيه إلى مكان. "ويوم نبعث من كل أمة شهيدا". "قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم" وقال عز وجل: "فأماته الله مائة عام ثم بعثه" وعلى هذا قوله عز وجل: "وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه". والنوم من جنس الموت فجعل التوفي فيهما والبعث منهما سواء، وقوله عز وجل: "ولكن كره الله انبعاثهم" أي توفاهم ومضيّهم" [1].

ج– معنى البعث عند ابن منظور: يقول ابن منظور: "بعثه يبعثه بعثا: أرسله وحده، وبعث به: أرسل معه غيره، وابتعثه أيضا أي أرسله فابتعث... وبعثه على الشيء: حمله على فعله. وبعث عليهم البلاء: أحله.

وانبعث الشيء وتبعث: اندفع وبعثه من نومه بعثا، فانبعث: أيقظه وأهبّه. وفي الحديث أتاني الليلة آتيان فابتعثاني أي أيقظاني من نومي. وتأويل البعث: إزالة

1– معجم مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الاصفهاني. ص: 50 –51، ت/ نديم مرعشي، دار الكتاب العربي.

ما كان يحبسه عن التصرف. ورجل بعث وبعث: لا تزال همومه تؤرقه، وتبعثه من نومه.

والبعث في كلام العرب على وجهين: أحدهما الإرسال، كقوله تعالى: "ثم بعثها من بعدهم موسى" معناه أرسلنا والبعث إثارة بارك أو قاعد... والبعث أيضا الإحياء من الله للموتى ومنه قوله تعالى: "بعثناكم من بعد موتكم" أي أحييناكم.

وبعث الموتى: نشرهم ليوم البعث وبعث الله الخلق يبعثهم بعثا: نشرهم ومن أسمائه عزّ وجل: الباعث، هو الذي يبعث الخلق أي يحيهم بعد الموت يوم القيامة.

وبعث البعير فانبعث حل عقاله فأرسله، أو كان باركا فهاجه، وفي حديث حذيفة: إن للفتنة بعثات ووقفات فمن استطاع أن يموت في وقفاتها فليفعل. قوله: بعثات أي إثارات وهيجات جمع بعثة"[1]

د- معنى البعث عند أبي البقاء الكفوي: يقول أبو البقاء "البعث: الإثارة والإيقاظ من النوم" من بعثنا من مرقدنا "وإيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن ليس يختص بها الباري والإحياء والنشر من القبور وإرسال الرسل. وبعث فيهم: جعله بين أظهرهم وبعث. إليهم: أرسل لدعوتهم سواء كان فيهم أم لا"[2].

---

1 - لسان العرب المحيط: ابن منظور. 230/1، 231، أعاد بناءه يوسف الخياط، دار الجيل، بيروت ودار لسان العرب. بيروت، 1988م.

2 - الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: أبو البقاء الكفوي. ص: 244، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1993م.

وخلاصة معنى البعث في الأقوال السابقة أن البعث ضربان بشري كبعث البعير وبعث الإنسان في حاجة، وإلهي وهو ضربان: إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن ليس، والثاني إحياء الموتى.

ثانيا: عدد ورود مادة البعث في القرآن الكريم

وردت اشتقاقات مادة "بعث" بمعنى- البعث يوم الآخر- في القرآن الكريم تسعة وثلاثين مرة بصيغ مختلفة بما في ذلك المتكرر في الآية الواحدة، كما يلي:

الفعل الماضي: ورد ست مرات، ورد مسند، إلى كاف الخطاب الدال على الجمع "بعثناكم" مرة واحدة، وورد مسند إلى هاء الغائب الدالة على الجمع "بعثناهم" مرتين، وورد مسند، إلى "نا" الدالة على الفاعلين بصيغة استفهام "من بعثنا" مرة واحدة، وورد مسند، إلى هاء الغائب الدالة على المفرد "بعثه" مرة واحدة، وورد بغير إسناد إلى الضمير "انبعث" مرة واحدة.

الفعل المضارع: ورد بصيغتين: المبني للمعلوم والمبني للمجهول. أما المبني للمعلوم فقد ورد سبع مرات كما يلي: ورد غير مسند إلى ضمير "يبعث" ثلاث مرات، وورد مسندا إلى كاف الخطاب وميم للجمع "يبعثكم" مرة واحدة، وورد مسندا إلى هاء الغائب الدالة على الجمع ثلاث مرات.

وأما المبني للمجهول فقد ورد ثلاث عشرة مرة كما يلي: في ثلاث مرات ورد مسندا إلى واو الجماعة ولكن على ثلاث حالات:

الحالة الأولى: ورد بتاء الخطاب "تبعثون" تسع مرات.

والحالة الثانية: ورد بياء الغائب "يبعثون" مرة واحدة.

والحالة الثالثة: ورد منصوب بحذف النون "يبعثوا" مرة واحدة، وورد غير مسند إلى ضمير على حالتين:

الحالة الأولى: مسند إلى ياء الغائب "يبعث" مرة واحدة.

والحالة الثانية: ورد مسندا إلى ألف المتكلم "أبعث" مرة واحدة. وورد مسندا إلى تاء الخطاب مؤكدا بنون التوكيد "لتبعثن" مرة واحدة.

فعل الأمر: ورد مرة واحدة "فابعثوا".

اسم المفعول: ورد تسع مرات كله مسند إلى واو الجماعة ولكنه ورد على حالتين:

الحالة الأولى: ورد مجرورا بحرف الجر "ب" "بمبعوثين" مرتين.

الحالة الثانية: ورد مرفوعا بواو الجماعة: مؤكد ب: "إنكم"، "إنكم مبعوثون" ورد مرة واحدة مؤكد ب:"أنهم"، "أنهم مبعوثون" ورد مرة واحدة. وورد مسندا إلى ضمير جمع المتكلمين "إنا لمبعوثون" في صيغة استفهام خمس مرات.

الاسم أو المصدر: وردت كلمة "البعث" مرتين، و"بعثكم" مرة واحدة.

هذه هي اشتقاقات مادة "بعث" في القرآن الكريم، إذا عددتها تجدها وردت تسعة وثلاثين مرة كما أسلفت الذكر. وإذا قسمنا هذه المادة بين المكي والمدني نجدها وردت في القرآن المكي اثنين وثلاثين مرة، وفي القرآن المدني سبع مرات، ومجموع السور التي أوردت هذه المادة -أي البعث- ستة وثلاثون سورة، مقسمة بين ثلاثين سورة مكية وست سور مدنية وهذا الفارق في عدد المكي والمدني واضح لأن القرآن المكي جاء ليدعو إلى التوحيد، بينما المدني جاء للتشريع وذكر البعث في المدني حسب نظري للتذكير، ولتأكيده نظرا لكونه أساس السير في هذه الحياة، لأن

الإنسان إذا لم يعرف ولم يعلم أن هناك دار جزاء وحساب فسوف يعيش في اضطراب وفوضى لا فرق بينه وبين الحيوان.

ثالثا: من معاني البعث

1- البعث بمعنى اليقظة أو الإيقاظ من النوم: البعث جاء في القرآن الكريم بمعنى اليقظة والإثارة من النوم ولهذا فالعلماء يقسمون الوفاة إلى وفاة صغرى، ووفاة كبرى. فالصغرى هي النوم، أما الكبرى فهي الموت قال تعالى: "وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضي أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعلمون"[1]

يقول الإمام الرازي: "اعلم أنه تعالى لما بين كمال علمه بالآية السابقة بين كمال قدرته بهذه الآية وهو كونه قادرا على نقل الذوات من الموت إلى الحياة ومن النوم إلى اليقظة واستقلاله بحفظها في جميع الأحوال وتدبيرها على أحسن الوجوه حالة النوم واليقظة. فأما قوله: "الذي يتوفاكم بالليل" فالمعنى أنه تعالى ينيمكم فيتوفى أنفسكم التي بها تقدرون على الإدراك والتمييز كما قال جل جلاله: "الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها" فالله جل جلاله يقبض الأرواح عن التصرف بالنوم كما يقبضها بالموت"[2].

---

1 - سورة الأنعام: 59-60.

2 - التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي. 120/13، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1990،1م.

ويقول سيد قطب: "ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى" أي يوقظكم في النهار من سباتكم وانقطاعكم، لتتم آجالكم التي قضاها الله، وهؤلاء هم البشر داخل المجال الذي قدره الله، لا مهرب لهم منه ولا منته لهم سواه.

وقال أيضا: هاهم أولاء في قبضة الله -كما هم دائما في الحقيقة لا يردهم إلى الصحو والحياة الكاملة إلا إرادة الله. فما أضعف البشر في قبضة الله"[1].

فمن خلال قول المفسرين يتبين لنا أن معنى "يبعثكم" في هذه الاية هو يوقظكم من نومكم، وهذا دليل على قدرته عز وجل على إحياء الموتى وبعثهم والسياق الذي وردت فيه الآية يدل على هذا فقد قال الإمام الرازي: "وأعلم أنه تعالى لما ذكر أنه ينيمهم أولا ثم يوقظكم ثانيا كان ذلك جاريا مجرى الإحياء بعد الإماتة، لا جرم استدل بذلك على صحة البعث والقيامة، فقال "ثم إلي مرجعكم"، في ليلكم ونهاركم وفي جميع أحوالكم وأعمالكم"[2].

بعض دلالات الآية:

قال محمد رشيد رضا: "فإطلاق البعث على الإيقاظ من النوم حقيقة لغوية ومن جعله مجازا نظر إلى العرف الشرعي فإن قيل: كان الظاهر أن يقال: وهو الذي يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه، فما نكتة هذا التقديم والتأخير في الآية؟ قلت: الظاهر المتبادر أن تأخير ذكر البعث لأجل أن تتصل به علته المقصودة بالذكر في هذا السياق وهو قوله تعالى "ليقضى أجل مسمى" أي يوقظكم ويرسلكم في أعمالكم لأجل أن يقضي وينفذ الأجل المسمى في علمه

---

1 - في ظلال القرآن: سيد قطب. 2/1121-1122، دار الشرق، ط 16، 1990.

2 - التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي. 12/13.

تعالى لكل فرد منكم فإن لأعماركم آجالا مقدرة مكتوبة لابد من قضائها وإتمامها"[1].

يقول الرازي: "إن النائم لا شك أنه حي، ومتى كان حيا لم تكن روحه مقبوضة البتة، وإذا كان كذلك لم يصح أن يقال: إن الله توفاه فلابد هنا من تأويل وهو أن حال النوم تغور الأرواح الحساسة من الظاهر في الباطن فصارت الحواس الظاهرة معطلة عن أعمالها فعند النوم صار ظاهر الجسد معطلا عن بعض الأعمال، وعند الموت صارت جملة البدن معطلة عن كل الأعمال، فحصل بين النوم وبين الموت مشابهة من هذا الاعتبار، فصح إطلاق لفظ الوفاة والموت على النوم من هذا الوجه".[2]

وكذلك قوله تعالى: "ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا"[3] وقوله: "كذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم..." فالبعث في هاتين الآيتين يعني الإيقاظ. يقول الرازي: "اعلم أن التقدير: وكما زدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم، فضربنا على آذانهم وأنمناهم وأبقيناهم أحياء لا يأكلون ولا يشربون ونقلبهم فكذلك بعثناهم أي أحييناهم من تلك النومة التي تشبه الموت ليتساءلوا بينهم...."[4].

---

1 - تفسير المنار: محمد رشيد رضا. 7/ 480، دار المعرفة، بيروت، 1993 م.

2 - التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي 13/ 11.

3 - سورة الكهف: 12-19.

4 - التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي. 21/ 87.

ويقول سيد قطب: "إن السياق يحتفظ بالمفاجأة في عرض القصة، فيعرض هذا المشهد، والفتية يستيقظون وهم لا يعرفون كم لبثوا منذ أن أدركهم النعاس"[1].

ففي هاتين الآيتين أيضا قدرة الله عزّ وجل على بعث كل المخلوقات يوم القيامة، وإن لم يدل على هذا المعنى صراحة كما دل في الآية السابقة من خلال سياقها، إلا أننا نستطيع أن نستنبطه، لأن القادر على أن ينيم عباده أكثر من ثلاثمائة سنة دون إصابتهم بأي مكروه قادر على أن يبعثهم يوم القيامة.

2- البعث بمعنى الإرسال: وورد البعث أيضا بمعنى الإرسال، أي إرسال الشخص وتكليفه بعمل معين، قال تعالى في سورة الكهف: "... قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا"[2]. "فابعثوا أحدكم" أي أرسلوه وكلفوه بشراء ما يلزمنا.

3-البعث بمعنى الإحياء في الدار الدنيا: ورد البعث أيضا بمعنى الإحياء بعد الموت لا في الدار الآخرة، ولكن في الدار الدنيا، قال تعالى في سورة البقرة: "وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون، ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون"[3]. قال الإمام القرطبي: " أي أحييناكم، قال قتادة، ماتوا وذهبت أرواحهم ثم ردوا لاستفاء آجالهم. قال النحاس: وهذا احتجاج على من لم يؤمن بالبعث بعد الموت، وقيل: ما توا موت هموم يعتبر به

---

1 - في ظلال القرآن: سيد قطب. 4 / 2263، دار الشروق، ط 1985،11 م.

2 - سورة الكهف: 12-19.

3 - سورة البقرة: 55-56.

الغير، ثم أرسلوا. وقال بعضهم: "بعثناكم من بعد موتكم" علمناكم من بعد جهلكم. والأول أصح، لأن الأصل في الكلام الحقيقة، وكان موت عقوبة، ومنه قوله تعالى: "ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم".[1]

قال الإمام الرازي: "فالمراد أنه تعالى إنما بعثهم بعد الموت في دار الدنيا ليكلفهم وليتمكنوا من الإيمان ومن تلافي ما صدر عنهم من الجرائم أما أنه كلفهم فلقوله تعالى: "لعلكم تشكرون"، ولفظ الشكر يتناول جميع الطاعات لقوله تعالى:"اعملوا آل داود شكرا"[2].

وقال وهبة الزحيلي: "ثم أحييناهم بعد الموت الحقيقي، ليستوفوا آجالهم المقدرة لهم، فقاموا وعاشوا ينظرون إلى بعضهم وذلك كله لتشكروا الله أيها اليهود المعاصرون على إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت، وتعتقدوا أن الله قادر على كل شيء"[3].

وقد ذهب محمد عبده إلى القول بأن المراد من الإحياء في هذه الآية هو كثرة النسل حيث قال: "المراد بالبعث هو كثرة النسل أي أنه بعد ما وقع فيهم الموت

---

1 - الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. 1/ 404. 405، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1985م.

2 - التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي. 3/ 81.

3 - التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: وهبة الزحيلي. 4/ 166، دار الفكر المعاصر، 1991 م.

بالصاعقة وغيرها وظن اليهود أن سينقرضون بارك الله في نسلهم ليعد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التي تمتع بها الآباء"[1].

وهذا المعنى الذي ذهب إليه محمد عبده لم أجده عند المفسرين الذين اطلعت على تفسيرهم لهذه الآية، ولست أرى أنه قد أخطأ فيما ذهب إليه، لأنه يحتمل أن يكون هذا المعنى هو المقصود، أو أن الآية تحتمل المعنيين، فقول البشر ليس بالقول المطلق، أو العلم المطلق، إنما هو علم نسبي، إذ العلم المطلق عند الله عز وجل.

وأيضا قوله تعالى: "أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشرها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير"[2]. فهذه الآية تدل على الإحياء بعد الموت في الدار الدنيا.

قال الرازي: "روي عن ابن عباس رضي الله عنه في سبب نزول هذه الآية، أن بختنصر غزا بني إسرائيل فسبى منهم الكثيرين، ومنهم عزير وكان من علمائهم، فجاء بهم إلى بابل، فدخل عزير يوما تلك القرية ونزل تحت شجرة وهو على حمار، فربط حماره وطاف في القرية فلم ير فيها أحدا فعجب من ذلك وقال: "أنى يحي هذه الله بعد موتها" لا على سبيل الشك في القدرة، بل على سبيل الاستبعاد بحسب العادة، وكانت الأشجار مثمرة، فتناول من الفاكهة التين والعنب، وشرب من

---

1 - تفسير المنار: محمد رشيد رضا. 1/ 322.

2 - سورة البقرة: 145.

عصير العنب ونام، فأماته الله تعالى في منامه مائة عام وهو شاب، ثم أعمى عن موته أيضا الإنسان والسباع والطير، ثم أحياه الله تعالى بعد المائة ونودي من السماء: يا عزيز: "كم لبثت" بعد الموت فقال: "يوما" فأبصر من الشمس بقية فقال: " أو بعض يوم" فقال الله تعالى: "بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك.... "[1].

يقول سيد قطب: "وفي سياق عن سر الموت والحياة تجيء القصة الأخرى:"أو كالذي مر على قرية... أن الله على كل شيء قدير" من هو الذي مر على قرية؟ ما هذه القرية؟ إن القرآن لم يفصح عنهما شيئا ولو شاء الله لأفصح، ولو كانت حكمة النص لا تتحقق إلا بهذا الإفصاح ما أهمله في القرآن، إن المشهد ليرتسم للحس قويا واضحا موحيا. مشهد الموت والبلى والخواء... يرتسم بالوصف: "وهي خاوية على عروشها" محطمة على قواعدها، ويرتسم من خلال مشاعر الرجل الذي مر على القرية، هذه المشاعر التي ينصح بها تعبيره: " أنى يحي هذه الله بعد موتها"... إن القائل ليعرف أن الله هناك، ولكن مشهد البلى والخواء ووقعة العنيف في حسه جعله يحار: كيف يحي هذه الله بعد موتها؟ وهذا أقصى ما يبلغه مشهد من العنف والعمق في الإيحاء... وهكذا يلقي التعبير القرآني ظلاله وإيحاءاته، فيرسم المشهد كأنما هو اللحظة شاخص تجاه الأبصار والمشاعر، "فأماته الله مائة عام، ثم بعثه" لم يقل له كيف، إنما أراه في عالم الواقع كيف! فالمشاعر والتأثرات تكون أحيانا من العنف والعمق بحيث لا تعالج بالبرهان العقلي، ولا حتى بالمنطق ولا تعالج كذلك بالواقع العام الذي يراه العيان، إنما يكون العلاج بالتجربة

1 - التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي. 4/ 28

الشخصية الذاتية المباشرة، التي يمتلئ بها الحس، ويطمئن بها القلب دون كلام!"[1].

ففي هاتين الآيتين - 56 و259 من سورة البقرة - دلالة قدرته سبحانه وتعالى على إحياء العظام وهي رميم.

بعض الدلالات من الآيتين:

بالنسبة للآية الأولى: قال الإمام الماوردي: "واختلف في بقاء تكليف من أعيد بعد موته ومعاينته الأحوال المضطرة إلى المعرفة إلى قولين:

أحدهما: بقاء تكليفهم لئلا يخلو عاقل من تعبد.

الثاني: سقوط تكليفهم معتبرا بالاستدلال دون الاضطرار.

والأصح: الأول: فإن بني إسرائيل قد رأوا الجبل في الهواء ساقطا عليهم والنار محيطة بهم، وذلك مما اضطرهم إلى الإيمان، وبقاء التكليف ثابت عليهم، ومثلهم قوم يونس، ومحال أن يكونوا غير مكلفين"[2].

- وقال الرازي: " فإن قيل: كيف يجوز أن يكلفهم وقد أماتهم ولو جاز ذلك فلم لا يجوز أن يكلف أهل الآخرة إذ بعثهم بعد الموت؟ قلنا: الذي يمنع من تكليفهم في الآخرة ليس هو الإماتة ثم الإحياء وإنما يمنع من ذلك أنه قد اضطرهم يوم القيامة إلى معرفته وإلى معرفة ما في الجنة من اللذات وما في النار من الآلام وبعد العلم الضروري لا تكليف فإذا كان المانع هو هذا لم يمتنع في هؤلاء الذين

---

1 - في ظلال القرآن: سيد قطب. 5 / 2985.

2 - الجامع لأحكام القرآن: القرطبي. 1 / 405.

أماتهم الله بالصاعقة أن لا يكون قد اضطرهم وإذا كان كذلك صح أن يكلفوا من بعد ويكون موتهم ثم الإحياء بمنزلة الإغماء".[1]

وقال وهبة الزحيلي: "هذه القصة دليل واضح على إمكان البعث بعد الفناء والحشر بعد النشر من القبور، والدليل الثابت الذي يمكن أن يحتج به على البعث في كل زمان ومكان"[2].

رابعا: العباد والبعث

العباد ليسوا سواء، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر، فالمؤمن أمر البعث عنده يسير، أما الكافر فالبعث عنده محال، وكذلك الجن فمنهم من يؤمن بالبعث، ومنهم من يكفر به، شأنهم شأن الإنس، وقد ذكر الله تعالى موقف هؤلاء في القرآن الكريم، وذكر تعجيزه لهم، هذا التعجيز الذي نزل به روح الأمين.

1- موقف المؤمنين من البعث

قال تعالى: "وقال الذين أوتو العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون"[3]. يقول سيد قطب: "وأولوا العلم هؤلاء هم في الغالب المؤمنون، الذين آمنوا بالساعة، وأدركوا ما وراء ظاهر الحياة الدنيا، فهم أهل العلم الصحيح وأهل الإيمان البصير، وهم يردون الأمر هنا إلى تقدير الله وعلمه "لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث" فهذا هو الأجل المقدور، ولا يهم طويلا كان أم كان قصيرا، فقد كان ذلك هو الموعد، وقد تحقق: "فهذا

---

1 - التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي. 3/ 81.

2 - التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: وهبة الزحيلي. 4/ 166.

3 - سورة الروم:56.

يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون"[1]. يقول ابن كثير:"يخبر الله تعالى عن جهل الكفارة في الدنيا والآخرة"[2]. ففي قوله: "ولو أنما في الأرض من شجرة آقلام والبحر يمده ومن بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم، ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير"[3].

يقول سيد قطب: "إن البشر يكتبون علمهم، ويسجلون قولهم ويمضون أوامرهم عن طريق كتابتها بأقلام يمدونها بمداد من الحبر ونحوه، لا يزيد هذا الحبر على ملء دواة، أو ملء زجاجة فها هو ذا يمثل لهم أن جميع ما في الأرض من شجر تحول أقلاما، وجميع ما في الأرض من بحر تحول مدادا، بل إن هذا البحر أمدته سبعة أبحر كذلك، وجلس الكتاب يسجلون كلمات الله المتجددة الدالة على علمه، المعبرة عن مشيئته فماذا؟ لقد نفذت الأقلام ونفذ المداد، نفدت الأشجار ونفدت البحار وكلمات الله باقية لم تنفد، ولم تأت لها نهاية، إنه المحدود يواجه غير المحدود، ومهما يبلغ المحدود فسينتهي، ويبقى غير المحدود لم ينقص شيئا على الإطلاق، إن كلمات الله لا تنفد، لأنه علم لا يحد، ولأن إراداته لا تكف، ولأن مشيئته سبحانه ماضية ليس لها حدود ولا قيود، وتتوارى الأشجار والبحار، وتتزوي الأحياء والأشياء، وتتوارى الأشكال والأحوال، ويقف القلب البشري خاشعا أمام جلال الخالق الباقي الذي لا يتحول ولا يتبدل ولا يغيب، وأمام قدرة الخالق القوي المدبر الحكيم "إن الله عزيز حكيم".

---

1 - في ظلال القرآن: سيد قطب. 4 / 2460،ط11، 1985 م.

2 - تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن كثير. 3 / 373،دار الأندلس، ط2، 1980م.

3 - سورة الروم: 56.

وأمام هذا المشهد الخاشع يلقي بالإيقاع الأخير في هذه الجولة، متخذا من ذلك المشهد دليلا كونيا على يسر الخلق وسهولة البعث: "ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصيرا" والإرادة التي تخلق بمجرد توجه المشيئة إلى الخلق، يستوي عندها الواحد والكثير، فهي لا تبذل جهدا محدودا في خلق كل فرد ولا تكرر الجهد مع كل فرد، وعندئذ يستوي خلق الواحد وخلق الملايين، وبعث النفس الواحدة وبعث الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضا، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم وأنهم لم ينظروا، فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة "لقد لبثتم في كتاب الله" أي في كتاب الأعمال "إلى يوم البعث" أي من يوم خلقتم إلى أن بعثتم"[1].

فهذا هو موقف المؤمن من البعث، وهذا هو ردهم على الكفار، إن المؤمن ليستعجل هذا اليوم، لأن الذي ينتظره أفضل بكثير مما هو فيه، على عكس، الكافر الذي لا يرجو وصوله. ويقول الإمام الرازي: "الموعد بوعد إذا ضرب له أجل يستكثر الأجل ويريد تعجيله، والموعد بوعيد إذا ضرب له أجل يستقل المدة ويريد تأخيرها"[2].

---

1 - في ظلال القرآن: سيد قطب. 5 / 2777.

2 - التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي. 25 / 120.

2- موقف الكفار من البعث

الحديث عن موقف الكفار من البعث يتضح من خلال هذه الآيات، حيث يقول تبارك وتعالى حكاية عن موقفهم: "وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا"[1].

يقول الأمام الرازي: "اعلم أنه تعالى لما تكلم أولا في الإلهيات ثم اتبعه بذكر شبهاتهم في النبوات، ذكر في هذه الآية شبهات القوم في إنكار المعاد والبعث والقيامة، وقد ذكر أن مدار القرآن على المسائل الأربعة وهي: الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر. وأيضا أن القوم وصفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكونه مسحورا فاسد العقل، فذكروا من جملة ما يدل على فساد عقله أنه يدعي أن الإنسان بعدما يصير عظاما ورفاتا فإنه يعود حيا عاقلا كما كان، فذكروا هذا الكلام لتقرير كونه مختل العقل.

إن الإنسان إذا مات جفت أعظاؤه وتناثرت وتفرقت في حوالي العالم فاختلط بتلك الأجزاء الترابية، فتختلط بتراب العالم، وأما الأجزاء الهوائية فتختلط بهواء العالم وأما الأجزاء النارية فتختلط بنار العالم وإذا صار الأمر كذلك فكيف يعقل اجتماعها بأعيانها مرة أخرى، وكيف يعقل عود الحياة إليها"[2].

يقول سيد قطب: "كان يصعب على المشركين تصور البعث بعد البلى والفناء المسلط على الأجسام، ذلك أنهم لم يكونوا يتدبرون أنهم لم يكونوا أحياء

---

1 - سورة الإسراء: 49.

2 - التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي. 20 / 175.

أصلا ثم كانوا، وأن النشأة الأخرى ليست أعسر من النشأة الأولى، وأنه لا شيء أمام القدرة الإلهية أعسر من شيء"[1].

وقال تعالى أيضا: "ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا، أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا"[2].

هكذا وفي السورة نفسها لما ذكر سبحانه وتعالى إنكار المشركين للبعث ورد عليهم بقوله: "قل كونوا حجارة أو حديدا"[3]. ليبين لهم أن قدرته أعظم مما يتصورون، ذكر هذه الآية ورد عليهم بقوله: "أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم". تبكيتا لهم. وقال أيضا:"بل قالوا مثل ما قال الأولون قالوا أإذا متنا وكنا ترابا وعظما إنا لمبعوثون، لقد وعدنا نحن وأباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين"[4].

وقال تعالى: "وإذا رأوا آية يستسخرون، وقالوا إن هذا إلا سحر مبين أإذا متنا وكنا ترابا وعظما إنا لمبعثون، أوآباؤنا الأولون، قل نعم وأنتم داخرون"[5]. وهكذا يذكر تعالى موقف المشركين ويرد عليهم بأوجز عبارة: "قل نعم". يقول الإمام الرازي: "ثم إنه تعالى لما حكى عنهم هذه الشبهة قال: قل يا محمد نعم وأنتم داخرون وإنما اكتفى تعالى بهذا القدر من الجواب لأنه ذكر في الآية المتقدمة بالبرهان

---

1 - في ظلال القرآن: سيد قطب. 4/ 2233.

2 - سورة الإسراء: 98.

3 - سورة الإسراء: 50.

4 - سورة المؤمنون: 81-83.

5 - سورة الصافات: 14 -18.

اليقيني القطعي أنه أمر ممكن وإذا ثبت الجواز القطعي فلا سبيل إلى القطع بالوقوع إلا بإخبار المخبر الصادق، فلما قامت المعجزات على صدق محمد صلى الله عليه وسلم كان واجب الصدق، فكان مجرد قوله: "قل نعم" دليلا قاطعا على الوقوع. ومن تأمل في هذه الآيات علم أنها وردت على أحسن وجوه الترتيب، وذلك لأنه يبين الإمكان بالدليل العقلي وبين وقوع ذلك الممكن بالدليل السمعي"[1]. وقال تعالى: "وكانوا يصرون على الحنث العظيم وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون، أو أباؤنا الأولون، قل إن الأولين والآخرين، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم"[2]. وقال تعالى: "بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين"[3].

يقول محمد رشيد رضا: "بين الله تعالى لنا في هذه الآيات شأنا آخر من شؤون الكفار المكذبين بآياته في الدنيا، وهو غرورهم بها، وافتتانهم بمتاعها، وإنكارهم البعث والجزاء، وما يقابله من حالهم في الآخرة يوم يكشف الغطاء، وهو ما يكون من حسرتهم وندمهم على تفريطهم السابق وافتتانهم بذلك المتاع الزائل"[4]. وقال تعالى: "وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء

---

1 - التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي. 26/ 112.

2 - سورة الواقعة: 46- 50.

3 - سورة الأنعام: 28-29.

4 - تفسير المنار: محمد رشيد رضا. 7 / 357.

ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين"[1].

يقول سيد قطب: "وكما جهز الخالق هذه الأرض وهذه السموات بما يصلح لحياة هذا الجنس، جهز هذا الجنس كذلك باستعدادات وطاقات، وبني فطرته على ذات القانون الذي يحكم الكون، وترك له جانبا اختياريا في حياته، يملك معه أن يتجه إلى الهدى فيعينه الله عليه ويهديه، أو أن يتجه إلى الضلال فيمد الله له فيه، وترك الناس يعملون، ليبلوهم لا للعلم فهو يعلم، ولكن يبلوهم ليظهر المكنون من أفعالهم، ومن ثم يبدوا التكذيب بالبعث والحساب والجزاء عجيبا غريبا في هذا الجو، بعدما يذكر أن الابتلاء مرتبط بتكوين السموات والأرض، أصيل في نظام، الكون وسنن الوجود، ويبدو المكذبون به غير معقولين وغير مدركين للحقائق الكبيرة في تكوين هذا الوجود، وهم يعجون لهذه الحقائق وبها يفاجأون"[2].

وقال تعالى:"إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل ومالهم من ناصرين، وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون"[3].

يقول سيد قطب: "وهؤلاء المشركون من قريش أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، فهم يقرون بوجود الله، ولكنهم ينفون عنه بعث الموتى من

---

1 - سورة هود: 7.

2 - في ظلال القرآن: سيد قطب. 5/ 2171، دار الشروق، ط11، 1985م.

3 - سورة الشعراء: 86- 88.

القبور، يرون هذا البعث أمرا عسيرا بعد الموت والبلى وتفرق الأشلاء والذرات"[1]. وقال تعالى:"يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء آلا إنهم هم الكاذبون"[2]. قال الإمام الرازي: "قال ابن عباس إن المنافق يحلف لله يوم القيامة كذبا كما يحلف لأوليائه في الدنيا كذبا"[3]. وقال تعالى:"زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير"[4]. قال ابن كثير: "هذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقسم بربه عز وجل على وقوع المعاد ووجوده، فالأولى في سورة يونس: "ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين"[5]. والثانية في سورة سبأ: "وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب"[6]. والثالثة هي هذه"[7].

يقول سيد قطب: "والمقطع يحكي تكذيب الذين كفروا بالبعث، وفيه توجيه للرسول أن يؤكد لهم أمر البعث توكيدا وثيقا، ومنذ البدء يسمى مقالة الذين كفروا زعما، فيقتضي بكذبه من أول لفظ في حكايته"[8].

---

1 - في ظلال القرآن: سيد قطب. 5 /2604.

2 - سورة البقرة: 55-56.

3 - التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي. 3/ 81.

4 - سورة التغابن: 7.

5 - سورة يونس:53.

6 - سورة سبأ:3.

7 - تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن كثير. 3 / 373، دار الأندلس، ط2، 1980م.

8 -في ظلال القرآن: سيد قطب. 4/ 2233.

إذن فهذا هو حال المشركين، وهذا هو موقفهم من البعث، إنهم كما قال سيد قطب: "لقد غفلوا آثار قدرة الله فيما حولهم، وفي ذات أنفسهم، غفلوا عن آثار هذه القدرة في خلق السموات والأرض وما بينهما، وفي خلق الكواكب والشهب، وفي خلق الملائكة والشياطين، وفي خلقهم هم أنفسهم من طين لازب، غفلوا عن آثار القدرة في هذا كله ووقفوا يستبعدون على هذه القدرة أن تعيدهم إذا ماتوا صاروا ترابا وعظاما..... وما في هذا البعث والإعادة من غريب على تلك القدرة ولا بعيد لمن يتأمل هذا الواقع ويتدبره تدبر، في ضوء هذه المشاهدات التي تحيط بهم في الآفاق وفي أنفسهم.... "[1].

3- موقف الجن من البعث

الجن كما أسلفت الذكر مثل الإنس، منه المؤمن ومنه الكافر، وهذه الآية التي بين يدي تتحدث عن الكافر: "وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا، وإنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا"[2]. والآن أذكر نموذجين لنبيين من أنبياء الله الذين أقرا البعث. ونموذج للذين غفلوا عنه. فالنبيان هما إبراهيم وعيسى عليهما السلام، حيث قال تعالى: "... واغفر لأبي إنه كان من الضالين، ولا تخزني يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون"[3]. هذا على لسان إبراهيم.

---

1 - سورة الإسراء: 98.

2 - سورة الجن: 6-7.

3 - سورة الشعراء: 86- 88.

يقول سيد قطب: "ونستشف من قول إبراهيم عليه السلام مدى شعوره بهول اليوم الآخر ومدى حيائه من ربه، وخشيته من الخزي أمامه وخوفه من تقصيره وهو النبي الكريم، كما نستشف من قوله: "يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم"، مدى إدراكه لحقيقة ذلك اليوم. وإدراكه كذلك لحقيقة القيم، فليست هنالك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الإخلاص"[1]. وقال على لسان عيسى عليه السلام: "والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا"[2]. فعيسى عليه السلام يقر بالبعث أيضا. والنموذج الغافل عن يوم البعث هو المطففون، قال تعالى:"آلا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين"[3]. إنهم ماضون في التطفيف كأنهم لا يظنون أنهم مبعوثون لرب العالمين. **إذن:** "لا داعي للعجب من قدرة الله تعالى، فإن البشر إذا عجبوا من إعادة الحياة للعظام البالية والرفات الفانية، فلقصور إدراكهم، وضعف قدراتهم، ونقص قواهم.

- لا يسع البشر حين دعوتهم بالخروج من قبورهم إلا الامتثال والطاعة والانقياد، وذلك يحصل بلحظة سريعة جدا.

- يقدر الناس بعد البعث أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا زمنا قليلا لطول لبثهم في الآخرة"[4].

---

1 - في ظلال القرآن: سيد قطب. 5 / 2604.

2 - سورة مريم: 33.

3 - سورة المطففين: 4- 6.

4 - التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: وهبة الزحيلي. 15 / 96-97.

خاتمة: هكذا أقول بأن البعث أمر لا مفر منه، لأن الحساب والجزاء والعقاب أمر ضروري ليستوفي كل إنسان حقه، لأن استيفاء الحق من مقتضيات الاستخلاف في الأرض، والله عز وجل لم يهمل عبده بل جعل له دستورا يمشي وفقه ويذكره بمصيره عند كل خطوة يخطوها، إننا نجد القرآن يذكرنا دائما بالبعث وبما ينتظرنا.

إن القرآن يتحدث عن البعث بصريح العبارة حينا وبالتلميح حينا آخر، وهذا ما اتضح من خلال ما عرضته من الآيات القرآنية وأقوال المفسرين لها.